الفصل الثاني
الصورة المحسوسة

الصورة المحسوسة نوع من الصور الشعرية التي تقوم على أساس المدركات الحسية المختلفة التي تنبع من الذات ومن التجارب الحياتية والواقعية ممتزجة بالخيال [1]،وقد تنوعت الأنماط الصورية في الجمهرة وفقًا لتنوع الحواس التي تستمد منها الصورة ،فمنها ما يستمد من حاسة السمع ،ومنها من الشم ،والتذوق ،واللمس ،والصورة القائمة على هذه الحواس تؤدى في إبراز المعنى وإظهاره في صورة محسوسة يكون لها تأثيرها الجلي في المتلقي ،فالإنسان يألفُ ما يعرفه ،ويدرك أبعاده ،ويكون ذلك لديه أكثر تأثيرًا ،وأعم إثارة ،فهو أُنْس النفوس البشرية كما يرى الجرجاني : " فأُنْسُ النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ ،وتأتيها بصريحٍ بعد مكني ،وأن تُرددها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر بشأنه أعلم ،وثقتُها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ،وعما يُعْلمُ بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ،لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة ،يفضلُ المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية

---

(١) صاحب خليل إبراهيم : الصورة السّمعية في الشعر العربي قبل الإسلام ــ منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠ م ص ١٢٩ .

التمام ،كما قالوا : ليس الخبرُ كالمعاينة ، وليس الظنُّ كاليقين ولهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس "[1]

وقد اهتم الشعراء بالحواس بوصفها أداتهم التي يلتقطون بها صورهم ،وربطوا بين هذه الحواس وشتى انفعالاتهم ومدركاتهم مزواجين بينها في استنباط الصور راسمين لوحاتهم الصورية منها جميعًا ؛ فجاءت شاملة لها مستوفية أركانها مختلفين في الوقت نفسه فيما بينهم في إيرادها ،وتتفاوت وفقا لاستعداداتهم الفطرية وأمزجتهم وحواسهم ،مستغلين قدرتهم على التعبير عن أفكارهم بوصفهم أمراء الكلام يمتلكون نواصيه ،ويصرفونه كيفما شاءوا ،ولديهم مالا يتوافر لغيرهم من مهارات إبداعية وقدرة على الخلق في التفنن في إخراج حالاتهم الشعورية ومعاناتهم الإبداعية في أجمل صورة ،وأكثرها بهاءً ورونقًا وطلاوةً ،لهذا يتفننون في ابتكار صورهم ،ويسعون جاهدين إلى إقناع المتلقين ،وسبيهم حيال أبياتهم ؛ فيجعلون قصائدهم حافلة بالألوان والأشكال بشتى زخارفها مستغلين شتى حواسهم في التقاط الصور ،ولهذا تعددت المناحي التي تبنى عليها الصورة في الجمهرة ،فقد استخدموا حواسهم في التقاط الصور ،ووزعوا صورهم على جوانبها المختلفة ؛ ليحسها

([1]) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدني ــ القاهرة ــ د. ت ص : ١٢١ ،١٢٢ .

المتلقون ،ويرونها ، ويتذوقونها ،ويلمسونها بأيديهم خفاقة بكلِّ ما أوتوا من سمات الإبداع ، وجماليات التشكيل الفني .
ويمكنني تقسيم الصور في الجمهرة حسب صلتها بالحواس إلى ما يلى :

أولاً: الصورة البصرية :

يعد البصر من أهم الحواس التي يعتمد عليه الإنسان في علاقاته بكل ما حوله ،فبه يلتقط صورَ الطبيعة المحيطة به ،ويتابعها بشغف ،ويشاهدها ،ويعرف خصائصها ،ويدرك سماتها ،وقد جاءت غالبية الصور الشعرية مبنية على حاسة البصر ، فعين الشاعر هي أول ما تقع على الشيء ؛ فتثيره الرؤية البصرية ،وتجذب انتباهه ؛ فيتابعه بشغف ،ويدقق في أوصافه مخرجًا صورته البصرية التي تدبُّ بالحيوية والحركة .

والصورة البصرية تتمحور في ثلاثة أطر ما بين بصرية ساكنة ،وبصرية متحركة ، وبصرية ملونة ،وجميعها تتخذُّ من البصر أداةً أساسية في التشكيل والبناء ،وقد وردت هذه الصورة كثيرًا في الجمهرة ،وقد اعتمد شعراؤها على أبصارهم في بنائهم

لصورهم ؛ فجاء المشهد البصري حاضرًا فيها ناطقًا ومعبرًا عن الحياة بشتى صنوفها ،ومثل ذلك نجده في قول امرئ القيس : (١)

تَرَى بَعَرَ الأَرَامِ فِي عَرصَاتِها وَقيعانِها، كـأنَّـهُ حَـبُّ فُلْفُلِ

فالشاعر يصور لنا منظر بَعْرِ الظباء التي سكنت ديار الأحبة بعد ما خوت منهم ، وأصبحت مسكنًا للظباء ومرتعًا لهم ،فأبعَارها مبعثرة بين الجدران كأنها في سوادها وصغرها حب الفلفل معتمدًا على العين التي التقطت مشهد هذه الصورة ؛ ليشكل صورة بصرية ، ووجود بعر الأرام على هذه الحالة ،وتشبيهه بحب الفلفل في سواده وصلابته يوحي من خلاله الشاعر بِبُعْدِ الرحيل والهجران ، فمحبوبته قد تركت الدار مع أهلها الظاعنين من وقت طويل لهذا جفَّ بعر الآرام ،ويبس ،وأصبح كحبِّ الفلفل في صلابته وسواده.

واستخدم الأعشى الصورة البصرية في تعديد فضائل ممدوحه في قوله : (٢)

يَهَبُ الجِلّةَ الجَراجِرَ كَالبُسـ ـتانِ، تَحْنُو لِدَرْدَقٍ أطفالِ

والبَغَايَا يَرْكُضنَ أَكْسِيَةَ الإضـ ـرِيجِ وَالشّرعَبيَّ ذا الأذْيَالِ

---

(١) الجمهرة ص: (١١٥/ ٤) الصيران : جمع صوار وهو لقطيع من الظباء والبقر ، عرصاتها : جمع عرصة وهي الساحة ، أي البقعة الواسعة ليس فيها بناء ــ قيعانها : جمع قاع وهي الصحراء الواسعة .

(٢) الجمهرة ص: (٢١٨ :٤٤/ ٤٢ : ٤٤)

وَدُرُوعاً مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ في الحَرْ ب، وَسُوقاً يُحْمَلْنَ فَوْقَ الجمَالِ
وجِياداً كـأَنّها قُضـبُ الشَّـوْ حَـطِ يَحْمِلْـنَ بِـزّة الأبْطَالِ
وَالمَكَاكِيكَ والصِّحافَ مِنَ الفِضَّـ ـــةِ وَالضّامزاتِ تَحْتَ الرِّحالِ

فالأعشى ــ على الرغم من ضعف بصره علـى أضـعف الأقوال [1] ــ يقدم لنا في أبياته السـابقة نمـاذجَ متعـددةً لعطايـا ممدوحه ،وهذه الصور التي يقدمها تمحورهـا الصـور البصـرية معتمدًا في تشكيلها على بصره الكليل ،فممدوحه يهب النوق العظيمة (**الجِلّـةَ**)التي هي في ضخامتها وعظمهـا كالبسـتان (القصـر)، ومحبوه بعدد من أطفالها ،فهو يعطى النوق بصحبة أولادها الصغار ،وتتمادى عطاياه إلى جانب الإشباع والترفيه فلا يكتفي بأن يعطيهم ما يسدُّ رمق الجوع ،بل يعطى ما يترفهون به ،ويمارسـون مـن خلاله أسباب الترف بجانب أسباب الحياة ؛ فيهب البغايا ،وهن فـي أبهي صورة بصرية راكضات في أكسيتهن المصنوعة مـن أفخـم أنواع الحرائر ذي الأذيال الطويلة ؛ فتجرهن خلفهن ، بجانب هـذا وذاك يهب الدروع والجياد ، إنها عطايا لا حـدود لهـا اعتمـد الشاعر في رسمها على الصورة الحسية البصـرية ، فـالنوق الضخام تُساق ،والبغايا في أكسيتهن البارقـة تهـب ، والمكاكيـك والدروع والخيول تبرز للعيان في أبهي صورة .

([1])الأعشى : ديوانه تحقيق : محمد محمد حسين ــ مكتبة الآداب بالجمـاميز ــ القاهرة د . ت المقدمة ص أ

ويصور النمر بن تولب محبوبته وهي موشحة بزينتها بقوله: (١)

أَنَاةٌ، عَلَيْهَا لُؤْلُؤٌ وَزَبَرْجَدٌ وَنَظْمٌ كَأَجْوَازِ الَجرادِ مُفَصَّلُ

فرسم لنا صورة بصرية تفصيلية لمحبوبته من خلال مشهد صوري بصري ،فهي في قيامها يجدها الناظر بطيئة متمهلة فيه ،ويغطيها حلى مفصلة من أزواج الجواهر المتشابكة ، فالجواهر ببريقها ولمعانها تلفت إليها الأنظار ؛ فتظل متوشحة بحليها اللامعة التي تذهب الأنظار وتأسرها وتدلُّ هذه الصورة البصرية ــ في الوقت ذاته ــ على ثرائها وتنعمها بدليل هذه الجواهر التي تلبسها .

ويصور القطامي الطلل معتمدًا على البصر في تجسيد ما حلّ به في قوله : (٢)

أنّى اهتَدَيْتَ لتسليمٍ على دِمَنٍ، بالغَمر، غيّرهُنّ الأعْصُرُ الأُوَلُ
صافَت، تُمَعَّجُ أَعْناقُ السيول بها، من باكِرٍ سَبَطٍ، أو رائحٍ يئلُ
فَهُنّ كالخِلَلِ الموشيّ ظاهِرُها، أو الكتابِ الذي قَدْ مَسَّهُ البَلَلُ

---

(١) الجمهرة ص : (٤٢٠ / ٤) ، أناة : بطيئة القيام أجواز الجراد : ظهورها

(٢) الجمهرة ص : (٦٤٣ ، ٦٤٤ / ٢ : ٤) ، الغَمْر : بفتح أوّله وسكون ثانيه : هو الماء الكثير المغرق والغمر بئر قديمة بمكة (معجم البلدان ٤/ ٢١١) ، تمعج : تتلوى ، باكر :أى من سحاب باكر ،سبط :يعنى ارتفاعه وتحليقه والسبط :الطويل من كل شيء ،رائح :سحاب أمطر بالعشى،الوابل:يفعل من الوابل مطر ضخم القطر شديد الوقع.

فالشاعر يرسم صورة بصرية للطلل مبتدأ كلماته بواقع حقيقي ينقله وفقا لرؤيته البصرية المتعلقة بالرؤية الفعلية لموضع الطلل ،وهو الغمر الذى فعل به الزمان الأفاعيل فغيرت معالمها ، وقد تناولت هذه الآثار أعناق السيول المتتابعة الملتوية الكثيرة الطويلة ؛ فأصبحت في صورتها مشابهة للكتاب الذى أصابه الماء ؛ فَذَهَبَ أثره و حسنه معتمدًا في هذا التشبيه على الصورة البصرية .

وتأتى الصور البصرية المتحركة لتشكل جانبًا من الصورة البصرية وهي في مجملها صورة تبنى على البصر ،وتكون الحركة عاملاً أساسيًّا مشكلاً لها ،ومثل ذلك نجده في قول امرئ القيس : (١)

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَنَّ اهْتِزامَهُ إذا جاشَ فيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ

فجعل الشاعر فرسه في جريه سريعًا سرعة فائقة مجسدًا هذه الصورة من خلال تصويره لمشهد صيد علت فيها همة هذا الفرس ــ كعادته ــ ؛ فظل متابعًا لفريسته مستحثًّا في الجري المتتابع جريًا بعد جري ،واستخدم الشاعر صيغة المبالغة (**جَيَّاشٍ**) ليؤكد على بُعْدِ السرعة ،ويقرب لنا هذه السرعة ؛ فيشبهها بالقدر الممتلئ ماءًا على نار مستعرة ؛ عندئذٍ يأكل بعضه بعضًا ،ويهيج ،

---

(١) نفسه ص : (١٣٦ / ٦٤) ، جياش : الذى يجيش في جريه كما تجيش القدر في الغليان ،اهتزامه : جريه .

فكذلك فرسه في جريه المتتابع ؛فيصبح صوت صهيله ــ من شدة جريه ونشاطه ــ متكسرا متتابعًا كالماء المغلي في هذا القدر الــذى يرتفع ويخبو ،ويعلو ،ويهبط هكذا صوَّر لنا الشاعر الفرس معتمدًا على بصره الذى كان له أثر كبير في تشكيل الصورة الشعرية فــي إطارها الفني الخلاب .

وقريبًا من ذلك قول قيس بن الخطيم: (١)

رِجَالٌ مَتَى يُدْعَوا إلى الحَرْبِ، يُرْقِلوا
إلَيْهَا، كإرقالِ الجمَالِ المَصَاعِبِ
إذَا فَــزِعوا مَــدّوا إلى الليل صَارِخًا،
كَمَــوْجِ الأتيِّ المُزْبِدِ المُتَرَاكِــبِ
تَــرَى قِصَدَ المُــرّانِ فيها كَــأَنّها
تَذَرُّعُ خُرْصَانٍ بِأَيْدِي الشّواطِبِ

فالشاعر رسم صورة بصرية لقومــه اســتعرض ــ مــن خلالها ــ شجاعتهم ،فهم يجيبون دعوة الداعي ،فــإذا دعــوا إلــى الحرب أسرعوا إليها إسراع الجمال القوية غير المذللة التي يصعب

---

(١) الجمهرة ص : (٥٠٩ ، ٥١٠ / ١٤ : ١٦) فزعوا : الفزع هو الخوف والذعر والإغاثة ، المران : الرماح المنكسرة ، تذرع : أي قــدر ذاع والمــراد تتكسر الرماح قدر ذراع ، الخرصان : جمع خرص ،وهو قضيب شجر وكل قضيب أو غصن يابس أو رطب من رمح أو سعف فهو خُرص ، الشــواطب : مفردها شاطبة وهي التي تقشر عسيب النخيل والشطبة السعفة الطويلة .

ركوبها ؛ فيسيرون بقوة وسرعة دون أن يعوقهم عائق ،وإذا استغيثوا يغاثون بمدد متصل متتابع كموج البحر في قوته ،وعنفه ،وتتابعه ،وتدفقه ؛وعندئذٍ يتجلى المشهد البصرى في رؤية ساحة المعارك ، فترى الرماح تنكسر ،وتتطاير إربا إربا وكأنها جريد النخل تقشر سعفه ،ويتطاير حولهم وهذه الصورة تعكس اشتداد المعركة التي أصبحت فيها الرماح الطويلة من شدة الارتطام وكأنها في تحطمها وتكسرها تقشر كالسعف .

وتأتى الصورة البصرية التي تعتمد على اللون محورًا جوهريا في الجمهرة ؛ ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم : (١)

ونحنُ إذا عِمادُ الحَربِ خَرّتْ على الأحفاض، نَمنَعُ مَن يَلِينا
نُطاعِنُ ما تَراخَى النّاسُ عنّا، ونَضرِبُ بالسّيوفِ، إذا غُشينَا
بسُمرٍ مِنْ قَنَا الخطيّ لُدْنٍ، ذَوابِلَ، أَو ببِيضٍ يَعْتَلينَا
نَشُقّ بها رُءوسَ القَوْمِ شَقّاً، ونَخْتَلِبُ الرّقابَ فَيَخْتَلِينَا
تَخَالُ جَماجِمَ الأبطالِ مِنْهُمْ وُسُوقاً بالأماعِزِ يَرْتَمِينَا
نَجُذّ رُءوسَهُم، في غَيرِ وترٍ، ولا يَدرُونَ مَاذا يَتّقُونَا
كأَنَّ ثِيابَنَا مِنّا ومِنْهُم خُضِبْنَ بأُرْجُوانٍ أَو طُلِينَا

---

(١) نفسه ص : (٢٨٢ : ٦٨٤ / ٣٨ :٤٥) ،الأحفاض : الخشب التي توضع فوق العماد للبيت ، الخطي : نوع من الرماح ينسب إلى قرية يقال لها الخط على ساحل البحر ،وقيل الخط :مرفأ البحرين اللّدن : اللين ، ذوابل : تتثني .

فاللون يلعب دورًا كبيرًا في رسم الصورة ،فقد حرص من خلاله الشاعر على إسباغ لوحته بهذه القطرات اللونية التي سكبها على بعض المواضع ليوحي من خلالها بدلالات تنطق بها صورته ،وقد اشتملت اللوحة القتالية السابقة التي صورت جانبًا من صراع دامٍ في معركة حربية سردها الشاعر مفتخرًا ببطولاتهم ؛ فتعالى فيها ضمير الجمع (**نا**) مجسدًا المفاخر والبطولات ،وهذان اللونان هما : السواد والحمرة بما يحملاه من شحنات وموروثات ميثولوجيه ، فقد لَوّنَ الشاعر الرماح الخطَّيِّة بالسواد مشيرًا بلونها إلى إحدى وظائفها ، فهي تحمل بين جنبتيها الموت لخصمها ،ولهذا جاءت سوداء نذير شؤم وخوف ،والسواد له نصيب عريض في هذه الدلالة ،ويوحى لونها من جانب آخر بقوتها وصلابتها ؛ فسوادها يعنى أن عودها قد تُرِكَ حتى يبس ،وجَفّ ،وتحول إلى أسود بما يحمله دلالة السواد من نذير شؤم وفقا للارتباط الاعتقادي بين الموت والسواد .

و أتى اللون الأحمر (**أرجوان**) ليشكل لون الدم الذى خضبت به ثيابهم ،وهو نتيجة طبيعية للسواد المتضمن الموت والقتل وللصراع الدامي الذى جسده الشاعر من خلال كلماته التي تضمنتها أبياته ؛ فجاء بالفعل (نشقٌ) بما يحمله الانشقاق من قطع ،وبتر وتقسيم ،وإسناد الفعل إلى ضمير الفاعلين المستتر وجوبا ،وكأن الفاعلين معلومون بداهة ،وهم ليسوا فردًا واحدًا إنما هم جماعة ،يتعاورن فيما بينهم على مزاولة هذا الشق والقطع ،ويزيد

الصورة تعقيدًا بأن جعل هذا الشق لرءوس القوم جميعا بلا استثناء ويخالط هذا الشق قطع الرقاب ؛ فتتناثر جماجم الأبطال وتسيل الدماء في كل مكان ؛ فتخصب الثياب وتلطخ الأرض .

وقريبًا من ذلك قول عنترة : (١)

فَطَعَنْتُهُ بالرّمْحِ، ثمّ عَلَوْتُهُ بِمُهَنَّدٍ صافي الحَديدةِ، مِخذَمِ

عَهدي بِهِ مَدَّ النّهارِ، كأنّما خُضِبَ البَنانُ ورأسُهُ بالعِظلِمِ

فهو يعتمد على الصورة البصرية التي يلعب اللون فيها جانبا كبيرًا ؛ فيبقى اللون مجسدًا لصورة الصريع المكبل بدمائه.

---

(١) الجمهرة ص : (٣٦٧ / ٧٣ : ٧٤) .

ثانيًا: <u>الصورة السمعية</u> :

هي صور تعتمد في بنائها اعتمادًا محوريًا على المؤثرات الصوتية التي تشكل جانبًا مهمًا في تشكيلها وإثرائها بالجوانب الفنية ،وذلك لما يمتاز به الصوت من قدرة فاعلة في تشكيل المعنى وقد جعل منه الشعراء " في أشكاله المختلفة عنصرًا إبداعيا مهمًا "[١] " وتقوم هذه الصورة على توظيف ما يتعلق بحاسة السمع ،ورسم الصورة عن طريق أصوات الألفاظ ووقعها في الأداء الشعري واستيعابها من خلال هذه الحاسة مفردة أو بمشاركة الحواس الأخرى مع توظيف الإيقاع الشعري الخارجي والداخلي لإبلاغ المتلقي ،ونقل الإحساس بالصورة لدى الشاعر إليه "[٢] على الرغم من شيوع الصورة البصرية قياسًا بغيرها من صور المدركات الحسية ،وقدرتها على نقل الجمال والقبح نقلاً حسيًا مدركًا بوسيلتها العين ؛ فإن الصورة السمعية بصورتها السالفة تتميز عنها بكونها لا تحدُّ بأبعاد حدودية تطوقها وتحجم من حدودها ، فالصورة

([١]) محمد العبد : إيداع الدلالة في الشعر الجاهلي ــ دار المعارف : القاهرة ط(١) (١٩٨٨م) ص :١٣

([٢]) صاحب خليل إبراهيم : الصورة السّمعية في الشعر العربي قبل الإسلام ص :١٩ .

البصرية تظل حبيسة الضوء ،فلا مجال لها حيث يسدل الظلام أستاره ،ويظل الكون بظلاله ؛عندئذ تتجلى الصورة السمعية مجسدة لما يحدث في الظلام متعدية مجال البصر القاصر على الضوء وتتخطاه ؛ فترسم في النور والظلام ، في الليل بظلامه الموحش ،والنهار بنوره الفاضح ،وتلم بأمور خفية تعجز العين أحياناً عن الوصول إليها ؛ عندئذ تتآزر الأصوات بما أوتيت من تنوع نغمي متولد من اختلاف درجاتها ، ومخارجها، وصفاتها متماشية مع ذُرَا الانفعالات ،وزبد الأفكار ،والعواطف التي تجتاح الإنسان ؛فتعبر عما يعتلج بداخله من شتى انفعالات النفس الملتهبة والمتباينة وفقا للحالة النفسية والمزاجية التي يمر بها الإنسان ، فيعبر الصوت بدرجاته المتفاوتة ومخارجه المتباينة وصفاته المتعددة عن حالات الإنسان من فرح وحزن بمختلف المعاني المستوحاة من الأصوات المتنوعة ،وإلى هذا الأثر الذى يحدثه الصوت تحدث الجاحظ قائلاً : " وأمر الصوت عجيب ،وتصرفه في الوجوه عجب ،فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ،ومنه ما يسرُّ النفوسَ حتى يفرط عليها السرور ؛ فتقلق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل نفسه من حالق ،وذلك مثل هذه الأغاني المطربة ،ومن ذلك ما يكمد ،ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنحو هذه الأصوات الشجية ، والقراءات الملحنة ،وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني ؛لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معانى كلامهم وقد بكى ماسرجويه من قراءة ابن الجوخ ،فقيل له : كيف بكيت من

كتاب الله ولا تصدق به ؟! قال : إنما أبكاني الشجا ،وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال "[1] .

فللصوت أهمية يستغلها الشاعر في تشكيل صوره السمعية مستمدًّا من بيئته شتى الأصوات المسموعة التي تخلق صورًا حيّةً نابضة تشدُّ المتلقين ،وتنقلهم لأجواء سمعية محفوفة بظلالها ،ومؤثراتها المطربة ؛ فتبدو ــ أحيانًا ــ هادئة ،وأخرى صاخبة حاملة بين ثناياها شتى الانفعالات من فرح ،وحزن ،ويأس ،وأمل ،وألم مستغلين هذه الأصوات الساحرة ليشكلوا من خلالها لوحاتهم الشعرية ،ومثل ذلك نجده عند النابغة في استخدامه لصوت الحمام مستدعيًا من خلال أصواته صورة محبوبته الظاعنة أم عمار في قوله : [2]

إذا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ ذكرني وإنْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمُّ عَمَّارِ

فالصوت يشكل ركيزة استعان بها الشاعر في رسم صورته ، فصوت الحمام الرمادي في ترانيمه وهذيله الزاجل المتواصل مع أليفه مستلطفًا ،ومداعبًا ،ومناغيا طالبًا ودها ،وألفها وقربها يهيج ذكراه ،ويجعله يقع في دوامة الحنين ،ويتذكر الأيام والليالي السالفة التي ذاق فيها شهد الوصل ، ولكن أنَّى له الذكرى

([1]) الجاحظ : الحيوان ١٩١/٤ وما بعدها .

([2]) الجمهرة ص : (٢٦/١٨٩) ،وورد هذا البيت في رواية أخرى كما يلي :
إذا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ هَيَّجَني، وإنْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمُّ عَمَّارِ

بعد ظعنها وهجرها ؛ عندئذ اشتدّ به الجوى،وازدادت الذكرى إلحاحًا على قلبه ،وقد ورد في رواية أخرى(**هَيَّجَني**)(١) بدلاً من ذكرني مستغلاً ما يحمله التهييج من شدة استفحال الحنين به حتى فاض كيله وملأ نفسه ، فصوت الحمام شكل عنصر الشوق لدى الشاعر ،وأصبح مثيرًا للذكرى والألم لديه.

وأتى الصوت ليرسم من خلاله الشاعر صورًا تحمل بين طياتها الخوف والشعور بالضياع من ذلك قول لبيد : (٢)

---

(١) ورد البيت في رواية أخرى كما يلي :

إذا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ هَيَّجَني، وإنْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمِّ عَمَّارِ

الجمهرة ص : (١٨٩/٢٦)

(٢) نفسه ص : (٢٥١ : ٢٥٦ / ٣٦ :٤٧) ، خذلت : تأخرت عن القطيع ، الصوار : قطيع البقر ، خنساء : قصيرة الأنف ، الفرير : ولدها ،الشقائق جمع الشقيقة وهي الأرض الغليظة وقيل :الملة = =المستطيلة التي لا نبات فيها ، بُغامها : صوتها ،المعفر :ولدها الملقى على التراب ،القهد : الأبيض ، شلوه : بقية سده والأشلاء ، غبش : ذئاب ،الواكف :المطر يدوم أيامًا لا ينقطع ،الخمائل الشجر الملتف ،التسجام : انصباب الماء وانهماره بكثرة ،تجتاف : تدخل في جوفه ، القالص : المرتفه ، متنبذًا : منتحيا العجوب : جمع عَجَب :وهو أصل الذنب ويعنى أطراف الرمال الأنقاء جمع نقا :وهو الكثيب من الرمل الذى نبت فيه الشجر ،الهيام الرمل اللين الذى لا يتماسك ،تزل : تسرع ، إزلامها : أظلافها ،علهت : جزعت ،تلدّد : يعنى تأخذ لديدى= =الوادى أي جانبيه والمقصود بها تحيرت ،سبعا تؤاما : سبعة أيام بلياليها ،أسحق حالق : جفّ ضرعها ، الرز : الصوت الخفي .

أَفَتِلْكَ ؟ أَمْ وَحْشِيّةٌ مَسْبُـوعَـــــــةٌ ؟
خَذَلَتْ؛ وَهَـادِيَةُ الصِّـــــــوَارِ قِوَامُهَا
خَنْسَاءُ ضيّعَتِ الفَرِيرَ، فَلَمْ يَـرِمْ،
عُرْض الشّقَائِق، طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا
لِمُعَفَّرٍ قَـــــــــهْـدٍ، تَنَـــــــــــــازَعَ شِـــــلْـوَهُ
غُبْسٌ كَـوَاسِبُ مَـا يُمَـــــــنّ طَـــــــعَامُهَا
صَـادَفْنَ مِنْهَا غِـــرّةً، فَأَصَبْنَهَا؛
إنّ المَنَايا لا تَطِيشُ سِـــهَـامُـهَـا
بَاتَتْ، وَأَسْبَلَ وَاكِـفٌ مِن دِيمَةٍ،
يُرْوِي الخَمَائِلَ، دَائِـــماً تَسْجَامُهَـا
تَجْتَافُ أَصْـلاً قَـالِصاً ، مُتَنَبِـــذّاً،
بِعُـــــجُوبِ أَنقَـــــاءٍ، يَمِيلُ هُيَامُـهَـا
يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِها مُـتَوَاتِـراً،
فِـي لَيْلَةٍ كَـــــفَرَ النّجُومَ غَمَامُهَا
وَتُضِيءُ في وَجْهِ الظّلامِ مُنِيرَةً،
كَجُمَانَةِ البَحْرِيّ سُـــلَّ نِظَامُهَا
حَتى إذا انْحَسَرَ الظّلامُ،وَأَسْفَرَتْ
بَكَرَتْ تَزِلُّ عَنِ الثَّرَى أَزْلاَمُهَا
عَلِهَتْ تَبَلَّدُ فِـي نِهاءِ صَعَائِـدٍ
سَبْعاً تُـؤَامـاً كَـاملاً أَيّـامُهَا

حتَى إذا يَئِسَتْ، وأسْحَقَ حَالِقٌ،
لَـمْ يُبْلِهِ إرْضَـاعُها وَفِـطَـامُهَا
وَتَسَمْعَتْ رِزَّ الأنيسِ، فَرَاعَها
عَنْ ظَهْرِ غَيبٍ، والأنيسُ سَقَامُهَا
فَعَدَتْ، كِلا الفَرجَينِ تَحْسِبُ أَنّه
مَـوْلَى المَخَافَةِ، خَلْفُها وَأَمَامُهَا

فقد جعل لبيد من الصوت جانبًا مهمًا في بناء صورته في لوحة البقرة المفجوعة في ليالي المعاناة التي أحاطها فيها بصعوبات شتى ،ومصائب جَمَّة انهالت علي كاهلها حاملا لها الليل بظلماته ــ التي غطت كل ما حولها ــ كربات متتالية تجلت أولها : في فقدها لوليدها وسعيها الحثيث في البحث عنه سبعة أيام بلياليها ،تطوف بين أرجاء الوادي تائهة ضائعة تعانى الأمرين في بحثها عن وليدها ،ولم يكتف الشاعر بمجرد مشقة البحث في ظلمات الليل وحرِّ النهار وإنما انهالت السماء عليها بالأمطار ؛ فاستترت ببقايا الأشجار من تلك الأمطار المتتابعة المنصبة على كاهلها وسط ظلام الليل ،وشرعت تبحث يمنة ويسرة عن ملجأ من هذه الأمطار المتتابعة، فلم تجد إلا بقايا أشجار وفروع تخفيها وتحجب عنها قطرات الماء المتتابعة وإذا ما أسفر الصباح بوجهه المنير ؛ جندت كل ما تملك من بصر وبصيرة محاولة أن تستكشف كل ما يحيطها متحيرة باحثة هنا وهناك حتى أتى الظلام ؛ فاستترت بالأشجار ؛ وظلت ملتاعةً متحيرةً تصول وتجول بين جنبي الوادي سبعة أيام متتالية

حتى جفَّ ضرعها ويأست من أن تجد وليدها ،ولكن القدر لم يمهلها برهة للراحة فما لبثت أن سمعت بأذنها الحساسة ما يدبُّ حولها ؛ فتصنت للصوت عندئذ سمعت صوتاً خفيًّا (رز الأنيس) حاملا بين جنبتيه دلالة الخوف والرعب المغلفين بمرارة الترقب والحذر ،وحلول الهلاك ،وقرب الأنيس حاملاً في قربه وصوته الخفي الهلاك والموت كوليدها المسبوع ؛ عندئذ أصابها الروع وأحاطها الخوف من كل جانب ، فقرب الأنيس هو الداء ومكمن الخطر .

وقريبًا من ذلك قول أبي ذؤيب : (١)

وَالدّهْرُ لا يَبْقَي على حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ له جَدَائدُ أَرْبَعُ
صَخْبُ الشّوَارِبِ ، لا يَزَالُ كَأَنّهُ عَبْدٌ لآلِ أَبي رَبِيعَةَ مُسْبَعُ

---

(١) الجمهرة ص : (٥٣٨ :٥٤٢ /١٩ :٣٥) ،الجميم : النبت الذى طال ولم يتم ، السمحج : الأتان الطويلة الظهر ،أزعلت :انشطته الأمرع : مكان مخصب قرار : جمع قرارة وهو المكان المستدير وهو ما كان فيه ماء ، واهٍ : دائم ،أثجم : مكث وهطل ،يشمع : يمرح ،جزرت:يبست ، الرزون :الأماكن الغليظة المرتفعة ، احتثهن: ساقهن ،السواء :اسم مكان ،بئر: قليل مهيع : واسع ،ربابة : خرقة تغطى بها القداح ويقال الرابة القداح ،اليسر: الذى يضرب بها ،الجزع : منعطف الوادي ، ينابع : اسم مكان ،الحرجات : جمع حرجة وهي الشجر الملتف ،المدوس : حجر لصيّقل الذى يصقل به السيوف ،الرابئ : المرتقب ،المتلبب : المتحزم ، الجش : القوس الغليظة ،أجش : مصوتة ، امترست : أسرعت هادية :متقدم ،الجرشع : الحمار غليظ الجنبين ، العائط : العاقر ،المتصمع : الملتزق بالدّم.

أَكَــلَ الجَمِيمَ، وَطَاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ مِثْلُ القَنَاةِ،وَأَزْعَلَتَــــهُ الأَمْرُعُ

بِقَــرَارِ قِيــعَــــــانٍ سَقَاهَــا صَــائِــفٌ،

واهٍ، فَــأَثْجَــمَ بُــرْهَةً لاَ يُقْــلِــعُ

فَمَكَثْنَ حِيناً يَعْتَلِــجْــنَ بِــرَوْضِــــــهِ،

فَيَجِدُّ حِيناً فــي العِلاَجِ وَيَشْمَعُ

حَتَى إذا جَــــزَرَتْ مِــيَــاهُ رُزُونــــهِ

وَبَأَيّ حَــزٍّ مَــــلاَوَةٍ يَتَــقَــطّعُ

ذَكَــرَ الوُرُودَ بِهَا، وَسَاوَمَ أَمْــرَهُ

شُــوْماً، وَأَقْبَــلَ حَيْنَهُ يَتَتَــــبّــعُ

فَاحْتَثّهُنّ مِــنَ السَّــوَاءِ، وَمَــاؤُهُ

بَثْرٌ، وَعَــانَــدَهُ طَرِيــقٌ مَهْيــــــعُ

فَكَــأَنّــهُــنّ رَبَــابَــةٌ، وَكَــأَنّــــــهُ

يَسَرٌ يُفِيضُ عَلَى القِدَاحِ وَيَصْدَعُ

وَكَــأَنّها بــالجِزْعِ جِــزْعِ يَنَــــابِــعٍ،

وَأُولاتِ ذي الحَرَجَاتِ نَهبٌ مُجْمَعُ

وَكَــأَنّمَــا هُــــوَ مِــدْوَسٌ مُتَقَــلِّــبٌ

فِــي الكَــفّ، إلاّ أَنّهُ هُوَ أَضْلَــعُ

فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ مَجْلِسَ رَابِئ الضُّــ

ـــرَبَاءِ فَــوْقَ النّجْمِ لاَ يَتَــــــتَلّعُ

فَشَرَعْــنَ في حَجَرَاتِ عَــذْبٍ بَــارِدٍ

حَصِبِ البِطَاحِ تَسيخُ فِيهِ الأكْرُعُ

فَشَـرِبْـنَ ثُمّ سَمِعْنَ حِسّاً دُونَـهُ

شَـــرَفُ الحِجَابِ، وَرَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ

وَهَمَاهِماً مِـنْ قَـانِصٍ مُتَلَبِّـبٍ،

فِي كَفّهِ جَشءٌ أَجَـشُّ وأَقْطَعُ

فَنَكَرْنَهُ فَنَفَـرْنَ، وَامْتَرَسَـتْ بِهِ

عَـوْجَاءُ هَـادِيَةٌ وَهَادٍ جُـــرْشُعُ

فَرَمَى، فَأَنْفَذَ مِـنْ نَحُـوصٍ عَائِطٍ،

سَهْماً، فَـخَرّ وَرِيشُهُ مُتَصَـــمِّعُ

فرسم أبو ذؤيب من خلال لوحته ــ التي أكّد من خلالهـا على شمولية الموت وإحاطته بالجميع ــ صورة سمعية تحمل بـين طياتها دلالة الخوف المنذر بالهلاك لقطيع البقر الوحشي في رحلته مع ثور الوحش ووردهن جميعًا للارتواء من الماء حتـى شـربن مفيدًا بعطفه بالفاء دلالة السرعة مع مراعاة الترتيب والتعقيب ،فقـد تبادل الثور وأبقاره الشرب متتاليين مسرعين ، ولكن ذلك لم يحل بينهم وبين سماع الصوت ،فأتى بـ (**ثُـمّ**) التـي تفيـد الترتيـب والتعقيب مع التراخي ،فبمجرد أن شربن واستقرت جرعات المـاء في أحشائهن وأحسسن ببرودتها بـين ضـلوعهن (**سَـمِعْنَ**) بانيًـا صورته على المؤثر السمعي بما يحمله من نذير شؤم لهذا القطيـع ،فقد سمعن جميعًا بلا استثناء ودون أدنى ريب (**حِسًّا**) نكرة بكل ما

توحيه هذه النكرة المبهمة من غموض ،وخوف ،ورعب ، وهذا الحس ذو الدلالات المخيفة من مكان أعلى .

ولم يكتف الشاعر بهذا الحسِّ ،وإنما أضاف له صوت قرع القوس ،وصوت الوتر ،فقد أصابه الشك من صوت ضربات القوس والسهم وقرعاته المتتالية التي تشق بضرباتها ظلمات الليل باحثة عن بغيتها ؛ فتقرع الآذان قرعًا متجددًا مستمرًا؛ فالصائد لا يَكِلُّ ولا يَملُّ ، ويستمر مجددًا نشيطًا يضرب بالقوس ،وقد عبر الشاعر عن هذا التجدد من خلال الفعل المضارع :(**يُقْرَعُ**) ،وتزداد الدلالة بعطفه (**وَرَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ**) **على** (**حِسًّا دُوْنَه**) ؛ ليزيد من دلالة الفزع ؛ فقرع المصدر تفيد حدوث الفعل دون تخصيص ذلك بزمن ، ويقرع تفيد التجدد والاستمرار مما أصاب القطيع بالشك والخوف ،وقد عبر عنهما بالريب ؛ فأصبحوا في حيرة مترددين متشككين خائفين من نوائب الحِسِّ ،وما يحمله بين جنباته من مصائب شتى تلقى ظلالها عليهما ،ويزيد الشاعر الصورة الصوتية عمقًا بعطفه (**هَمَاهِماً**) على (**حِسّاً**) ، و(**رَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ**) ؛ ليزيد من يقين القطيع بأن ما يتعاور من أصوات على آذانهم إنما هو حقيقة لكنها ما زالت حقيقة غامضة فهي أصوات (**هَمَاهِماً**) غير مميزة وغير مفهومة ، وكونها غير مفهومة يزيد من ريب القطيع ،وشكه، ونسب هذا الصوت إلى (**قانص**)،ولم يكتف بكونه مجرد قانص حاذق للضرب ،بل جعله متلبثًا حازمًا متجهزًا للفتك بفريسته ، ومتأهبًا بعدته ،ففي كفِّه قوس يخرج سهامه المصوتة بأصواتها المخيفة

التي تحمل بين ثناياها الموت المرعب ،وسهم قاطع لكل خير ،وقد صدق شك هذا القطيع وتحول إلى حقيقة ماثلة أمام أعينهم على يدِّ هذا الصائد ،فرمى بسهامه المصوتة ؛ فسقطت فريسته مضرجة بدمائها .

وأتى الصوت ليشكل ملمحًا من ملامح الصورة في لوحة المرأة عند عمرو بن كلثوم في قوله : (١)

وَمَأْكَمَةً يَضيقُ البابُ عَنْهَا، وَكَشْحاً قد جُنِنْتث بِهِ جُنُونَا

وسَالِفَتَيْ رُخامٍ، أَوْ بِلَنْطٍ، يَرِنُّ خَشَاشُ حَلْيهِما رَنينَا

فالشاعر جعل الصوت جانبًا من صورة محبوبته ،فتناول أبعادها الجسمانية ،وفضائلها الجمالية مستتبعًا ذلك بالوصف والتدقيق ،فوركها من ضخامته يضيق الباب عنه ،وكشحها ــ وهو ما بين الوسط والأضلاع ــ قَد جُنَّ به الشاعر لرشاقته جنونًا ،أما صفحة عنقها فهي بيضاء ناصعة كالحجارة البيض يَرِنُّ بها الحلى والجواهر رنينًا ؛ فتجذب الأنظار إليها ،وتوحى حليها الرنَّانة بثرائها وتنعمها .

ورسم لنا عنترة بن شداد صورة سمعية جسد فيها ما حلَّ بالدار بعد رحيل محبوبته وما يدور فيها من خلال صوت الذباب في قوله : (١)

---

(١) الجمهرة ص : (٢٧٨، ٢٧٩ /٢٣، ٢٤) ،المأكمة : رأس الورك السالفتان : صفحتا العنق ، البلنط : حجارة بيض ،الخشاش : صوت الحلي .

ولقد مَـــرَرْتُ بدارِ عَبْلَةَ بَعدَمَا لَعِبَ الرَّبيعُ برَبْعِها المُتَوسّمِ
جَـــادَتْ عَلَيهِ كـــلُّ بِكْرٍ حُـــرّةٍ فَتَركنَ كُـــلّ قَرارَةٍ كـــالدّرْهَمِ
سَحّاً وتَســـكاباً، فكُلَّ عَشـــيّةٍ يَجري عليها المَاءُ لَمْ يَتَصَرّمِ
وخَلا الذُّبابُ بها، فَلَيسَ بـــبارِحٍ، غَـــرِداً كَفَـــعلِ الشّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَـــزِجاً يَحُكُّ ذِراعَـــهُ بذِراعِهِ، قَدْحَ المُكِبِّ على الزّنَادِ الأجْذَمِ

فصور لنا الشاعر دار عبلة بعد ما أحاطها الربيع بثوبـــه الجديد ،وجادت عليها السماء بسحب متتابعة دامت أيامًا طويلة تتابع فيها هطول المطر ما بين سحٍّ وتسكاب للماء وانصبابه بقوة وشـــدة ،وسيلان من غير انقطاع ؛ فأصبحت الأرض كالدراهم لاســـتدارتها بالماء ،وانقطع للطوفان عليها الذباب فلم يتركهـــا ،وظـــل مغـــردًا مترنمًا بهذه الروضة الخالية التي صنعها الربيع محـــدثا بترانيمـــه المتتابعة أصواتا تشبه في نغمها ترانيم السكران الذى فعلت بعقلـــه الخمر أفاعيلها ؛فانتشى بشربها ،واستمتع بعبقها ؛فنسى كل ما حوله ،وترنم بأغانيه المنتشية حروفها بعبق الخمر المسكر محدثًا صـــوتًا ورنينًا تولد من حكِّه لذراعه بذراعه مشبهًا هذا الفعل برجل مقطوع الكفين يُورى زنادًا ،وهذا من أعجب التشبيه .

---

(١) نفسه ص : (٣٥٤ : ٣٥٥ /٢٩ : ٣٣) ، البكـــر : الســـحابة فـــي أول الربيع التي لم تمطر قبلها ، الحرة : البيضاء الخالصة ،القـــرارة : الموضـــع المطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل،السح والتســـكاب : الصـــبّ ، لـــم يتصرم : أي لم يتقطع ،الغرد : المطرّب ،المترنم : الذى يرجّع الصوت بينـــه وبين نفسه،الهزج : الصوت ،الأجذم : المقطوع الكف .

واستخدم الشماخ الصوت ليشكل من خلاله صورته في قوله: (١)

إذَا أَنْبَضَ الرّامُــونَ فِيهَا تَرَنَّمَــتْ

تَرَنُّــمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْها الجَــنَائِــــزُ

هَتُوفٌ، إذا ما خَالَطَ الظبيَ سَهْمُهَا،

وَإنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهُ النّوافِزُ

فالشماخ رسم لنا صورة القوس من خلال مشــهد ســمعي اعتمد فيه على الصوت بوصفه ركيزةً في بنائهــا ؛ فــالقوس إذا جذب الرامون وترها وشده بيده ترنمــت محدثــة رنينًــا وجلبــة ،وصوتًا مماثلاً لصوت نشيج ثكلى محملــة بمــرارة الفقــد وقــد أوجعتها الجنائز والمصائب التي تتوالى عليها ، مصوتة محدثة جلبة إذا ما ارتطم سهمها بالظبى محدثا ألمًا وأوجاعًا وصــرخات ،وإن خاف منها نجا وأسلمه منها فراره ووثباته .

---

(١) الجمهرة ص : (٦٦٩ /٣٦، ٣٧) .

ثالثًا: الصورة الذوقية :

التذوق حاسة من حواس الإنسان التي نتمكن بها من تمييز نكهات الأشياء بما بينها من فروق ،وإدارك الدرجات المختلفة لهذا النوع أو ذاك من ناحية التدرج في الحسن أو القبح ، والشعراء حاولوا بما أوتوا من آليات خاصة منحتهم عمقًا في تصويرهم لانفعالاتهم وخصوصية في أخيلتهم جعلتهم قادرين على تغيير طبيعة الأشياء والأمور المألوفة المحيطة بهم التي تشملهم بجنباتها الرحبة ؛ليعبروا عمّا يتعاور في أذهانهم ونفوسهم من أفكار ورؤى ، وما تجيش به قلوبهم من مشاعر ،وما تكنه من أحاسيس ؛ ليتخذوا من حاسة الذوق وسيلة في بناء صورهم ؛ فجعلوا للأشياء أذواقًا خاصة على سبيل الخيال ؛ عندئذ يذيبون الفواصل بين الحواس ،وتتآزر جميعها من أجل التعبير عما يعانيه الشاعر في مخاض تجاربه الشعرية ، ويخرج هذه المعاناة في قالبها المناسب الذى يتمكن به من جذب الآخر ،وجعله يشاركه فيما يحسُّ ،والذوق أحد وسائل شعراء الجمهرة في رسم صورهم ،فجاءت الصورة الذوقية لتشكل جانبًا من جوانب الصورة الشعرية في الجمهرة ،وقد جاءت هذه الصور تتعلق بمحورين الأول : المرأة وخاصة طعم فيها عند تقبيلها أو ابتسامتها ،والآخر : متعلق بالحرب وويلاتها وما يتجرعه

الإنسان إزاء ما يعانيها [١] ،فأما ما يتعلق بالمرأة فنجده واضحًا في قول عنترة بن شداد مصورًا فم محبوبته : [٢]

إذْ تَستَبيكَ بِذي غُرُوبٍ واضحٍ، عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ، لَذيذِ المَطعَمِ

فجعل فمّ محبوبته ذا تركيبة خاصة تُسْبي مَنْ ينال فضل ملامسته وتقبيله ،فهو عذب بكل ما تحمله الكلمة من صفاء خالٍ من الكدر بشتى صنوفه لذيذ ،وبذلك جمع الشاعر له أمرين من الذوق ،وهي العذوبة ،والصفاء من الشوائب والمرارة ؛ فأصبح سائغًا ،وممتعًا ، ولذيذًا شهيا لا يملُّ من ملاصقته ومعاقرته أحد.

واجتمعت الرائحة العطرة مع الطعم الشهي في قول المرقش في وصف فم محبوبته : [٣]

وَمَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ، كَالمِسْكِ رِيحُها،
تُعَلُّ على النّاجُودِ طَوراً وَتُنزَحُ
ثَوَتْ في سَوَاءِ الدّنِّ عِشْرِينَ حِجّة
يُطَانُ عَلَيْهَا قَرْمَدٌ، وَتُرَوَّحُ
سَبَاهَا رِجَالٌ مُدْمِنُونَ، تَوَاعَدُوا

---

(١) الجمهرة ص : (٣٥٣ / ٢٣) ، (٣٦١ / ٥٢ :٥٤) ،(٤٣٨، ٤٣٩ /٨ : ١١) .

(٢) نفسه ص : (٣٥٣ / ٢٣) .

(٣) نفسه ص: (٤٣٨، ٤٣٩ /٨ : ١١) ،الناجود : أوعية الخمر ،،تنزح : تقدح ، القرمد : حجارة ، جيلان : موضع .

بِجيلانَ يُدنيها إلى السوق مُرْبِحُ

بِأَطْيَبَ من فيها إذا جِئْتُ طَارِقــاً،

مِــنَ اللّيلِ، بل فُوها أَلَذّ وَأَنْضَحُ

فالشاعر عَقَدَ أُسلوبًا تشبيهًيا مطولاً قائمًا على المفاضلة بين الخمر وفم محبوبته ، وقد جعل الخمر في أبهــي صــورها ،وألــذ حالاتها ،فهي صهباء اجتمع فيها عذوبة اللون وصــفاؤه ، وجمــال الرائحة وعبقها المنعش ،فهي صهباء اللون كالمسك رائحة مكثــت في دنها عشرين حجة ،وأجيد التعامل معهــا وتخزينهــا بصــورة جعلتها أكثر عتقًا ،فقد وضع عليها الطين ، وجمعها رجال مدمنون ،وهم أكثر الناس خبرة بها ،وكانت بجيلان ،وهي منطقــة عرفــت بجودة الخمور ؛ لكي يربحوا من بيعها ،وعلى الرغم من كلِّ ما في هذه الخمر من فضائل من ناحية اللون والرائحة والطعم ،فإنهــا إذا قورنت بفمِّ محبوبته نجدها قاصرة ، ففوها ألذُّ في الطعم ، وأكثــر انتشارًا لرائحة المسك .

واستعمل شعراء الجمهرة الذوق ؛ لينحوا به منحىً جديــدًا في صورتهم الشعرية ،وذلك عندما تتولد المعاناة ،وتشتد الكربــات يتحول الذوق إلى المعنويات ؛ فتظهر في لوحاتهم الشعرية ،وكأنها شيء يذاق ،وذلك نجده في قول عنترة : (١)

أَثْنِي عَليّ بِمَا عَلِمْتِ، فإِنّني سَمِحٌ مُخَالفَتى إِذَا لَــمْ أُظْلَمِ

---

(١) الجمهرة ص: (٣٦١ / ٥٢ :٥٤)

وَإِذَا ظُلِمتُ فإنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ مُــرٌّ مَــذَاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ
وَلَقَدْ أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حَتّى أَنَــالَ بِهِ لَذِيذَ المَطْعَمِ

وفي قول أبى قيس بن الأسلت : (١)

أَنْكَرْتُــهُ حَتّى تَــوَسّــمْتُــهُ وَالحَرْبُ غُولٌ، ذَاتُ أَوْجَاعِ
مَنْ يَذُق الحَرْبَ يَجِدْ طَعْمَهَا مُــرّاً، وَتَحْبِسْــهُ بِجَعجــاعِ

وفي قول بشر بن أبى خازم : (٢)

وَلَقَدْ خَبَطْنَ بَنِي كِــلابٍ خَبْطَةً أَلْحَقْنَهُمْ بِدَعَــائِمِ المُتَخَيِّمِ
وسَلَقْــنَ كَعْبَاً قَبْلَ ذَلِكَ سَلْقَةً بِقَنَاً تَعَــاوَرُهُ الأَكُفّ مُقَوَّمِ
حتى سَقَيْنَاهُمْ بِكَــأْسٍ مُــرّةٍ مَكْرُوهَةٍ، حَسَواتُها كَالعَلْقَمِ
قُــلْ للمُثَلَّمِ وابنِ هِنْدٍ بَعْــدَهُ: إن كُنْتَ رَائِمَ عِزّنَا فاسْتَقْدِمِ
تَلْقَ الذِي لاَقَى العَدُوُّ، وتُصْبَحُ كأساً، صُبَابَتُهَا كَطَعْمِ العَلْقَمِ

فالشعراء يحاولون من خلال صورهم الذوقية الســابقة أن يغيروا من طبيعة الأشياء ، فقد رسموا لكُلِّ ما يُكــره ،ويســتهجن صورةً ذوقيةً متسقةً معه في المرارة والقبح ؛ فجعلوه في مرارتــه كالعلقم ذلك الشجر المُرِّ الطعم ؛ " فالعَلْقَمُ : شجر الحَنْظَل، وكُلُّ مُرٍّ

---

(١) نفسه ص : (٥٢٢ /٢، ٣) ، التوسم : التثبت في معرفة الشيء، الجعجاع :الأرض الغليظة وكل ضيق خشن غليظ .

(٢) نفسه ص : (٤٠٤، ٤٠٥ /٢٠ : ٢٣) ،المتخيم : موضعهم الذى أقاموا به وبنوا الخيمة ،وبنو كلاب : حيّ من بني عامر بن صعصعة ، سلقه : طعنــه ، الحسوات : جمع حسوة هي ملء الفم، رائم : فاعل .

عَلْقَمٌ، وقيل: هو الحنظل بعينه أَعني ثمرته وقال الأزهري: هو شَحْمُ الحنظل، ولذلك يقال لكل شيء فيه مرارة شديدة: كأَنه العَلْقَم. ابن الأَعرابي: العَلْقَمَة النَّبقة المُرَّةُ، وهي الحَزْرة. والعَلْقَمة: المَرارة. وعَلْقَمَ طعامَه: أَمَرَّه كأَنه جعل فيه العَلْقَم. ،وطعام فيه عَلْقَمَةٌ أي مرارة. والْعَلْقَمُ: أشدُّ الماء مرارة. وقال ابن دريد: العَلْقَمةُ اختلاط الماء و خُثُورَتُه. الجوهري: العَلْقَمُ شجرٌ مرٌّ " [1] ، ولهذا جعلوا للظلم ،والحرب ،والتناوش ،والتعارك في ساحات المعارك ،وملاقاة العدو مرارة كالعلقم في شدتها ،وهي صور ذوقية جعلها هؤلاء الشعراء لهذه الأمور على سبيل المجاز مستخدمين هذه الظاهرة الذوقية في بناء صورهم ،وجعلها حاضرة في ذهن المتلقي ، فيستدعى ذلك مرارة هذا النبات ،وحسواته المُرّة .

([1]) ابن منظور : لسان العرب مادة (علقم) .

رابعًا: الصورة المشمومة :

الشَمُّ أحد حواس الإنسان التي يتمكن بها من إدراك الفروق في الروائح فيميز بآلياتها بين الروائح العطرة وغيرها ودرجاتها ؛ فيطرب للرائحة العطرة ،وينتشى باستنشاقها وملء صدره بعبيرها المسكر ،ويتأفف من الروائح المنتنة ،ويضيق ذرعًا بمجرد عبورها على أنفه تأففًا تاركًا الموضع بما فيه ،ولقد ساهمت حاسة الشم في إبراز المشاعر والأحاسيس لدى شعراء الجمهرة الذين اعتمدوا عليها في بناء صورهم ؛فرسم امرؤ القيس الصورة الشمية لمحبوبتيه في قوله : (١)

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبلَها، وَجارَتِها أُمِّ الرَّبـابِ بِمَأْسَلِ

إذا قامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُما، نَسيمَ الصَّبا جاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ

فالشاعر أبرز الصورة المشمومة لمحبوبتيه أم الحويرث وأم الرباب وهما معطرتان بعطر ذي تركيبة خاصة ،فبمجرد تحركهما ومحاولتهما القيام يتضوع المسك منهما ،والتضوع تحرّك وتهيج ؛ فانتشرت رائحتهما ،وشملت كل يحيط بهما ،وأحاطتهم إحاطة تامة جعلتهم بسهولة ويسر يعثرون على مَنْ تنتشر منه هذه الرائحة العطرة ،وقد جاء تضوّع مزيدًا بالتاء والتضعيف ؛ ليفيد من خلال الزيادة والتضعيف زيادة الانتشار والشمول ،وقد جعل الشاعر

---

(١) الجمهرة ص: (١١٦، ١١٧ / ٩ ، ١٠) .

هذا التضوع والانتشار يشملهما ،ويعم الموضع ؛فتنتشر ذراته في الهواء ، وتتحرك في الفضاء نسمات ريحهما المحملة بشذا المسك ذي الرائحة العطرة الجذابة ،وقد جعل الشاعر هذه الرائحة المنتشرة تفوح منهما على حدٍّ سواء ،وقد قيد هذه الرائحة التي جعلها منتشرة بكونها كنسيم الصبا العليل ،فهي ليست ريحًا هوجاء تفوح زائدة عن معدلها الطبيعى ؛ فتعصف بمَنْ يجدها ،ويتأفف من شدتها مَنْ يستنشقها ،بل هي كنسيم الصبا ،وهي أول هبوبها في رقته ،وهذا النسيم جاء محملاً برائحة القرنفل ،فلم يجعلها كنسيم الصبا تاركًا الأمر على علاته ،فقد يكون هذا النسيم محملاً بالأتربة ،والروائح المنتنة ، ولكن جعله محملاً برائحة القرنفل الخلابة ،ليجمع من خلال هذه الصورة رقى الرائحة ،وانتشارها ،ولينها، وعطرها الذى يفوح منهما ، فهما متعطرتان يفوح منهما رائحة فاتنة ،وينفي عنهما ما دون ذلك من روائح .

ومثل ذلك نجده في قوله: (١)

ويُضْحَى، فُتِيْتُ المِسكِ فوقَ فِراشِها

نَؤُومُ الضُّحَى لم تَنتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

فرسم الشاعر لمحبوبته صورة مخالفة للنسق الإنساني ،فهي عندما تستيقظ من نومها ضحًا عندما تشتد الشمس ،وتفعل بالنائمين أفاعيلها عندما تلقى أشعتها المحرقة على الأرض ؛ فترتفع

---

(١) نفسه ص: (١٢٩ /٤٥) .

درجة الحرارة ،ويتفصد جبينهم وأجسادهم عرقًا ،وخاصة النائمين ؛ عندئذ تصبح محبوبته في صورتها الشميّة ذات طبيعة خاصة ،فهي إذا استيقظت من نومها ضحًا يُشمُّ على فراشها فُتَات المسك المتناثر حولها ،وهو يعنى به حبات العرق التي تناثرت فوق فراشها ــ على الرغم من الدلالة العرفية الشائعة عن كره رائحته مهما تطيبت ــ كفتات المسك في رائحته ،فلا تشم منها رائحة خبيثة ،بل المسك عرقها وللضحى نومها ،والتنعم صفتها وطبعها .

وينعت عنترة فم محبوبته بالعذوبة في قوله : (١)

إذْ تَستَبيكَ بذي غُرُوبٍ واضحٍ، عَـذْبٍ مُقَبَّلُهُ، لَـذيـذِ المَطعَمِ
وكـأنّ فارَةَ تاجِـرٍ بقَسيمَةٍ، سَبَقَتْ عَوارِضَها إليكَ مـن الفَمِ
أو رَوضَةَ أُنُفاً تَضَمّـنَ نَبتَها غَيـثٌ قليلُ الدِّمـنِ، لَيسَ بمعلَمِ

فجمع عنترة لفم محبوبته ما بين عذوبة الطعم وعبق الرائحة ،فهو شهي يُسْبِي المُقَبل بطعمه اللذيذ ،ورائحته العطرة ،وكأن وعاء المسك ،أو جونة العطار قد عطر بهما فمها ، فأصبحت أسنانها عطرة ،وفوها يفوح بالمسك .

وقول النمر بن تولب : (٢)

---

(١) الجمهرة ص : (٣٥٣ : ٣٥٤ / ٢٣ : ٢٦) .

(٢) نفسه ص : (٤٢٠ / ٤ : ٦) أناة : متأنية بطيئة ، أجواز الجراد : الجواهر ، يربيها : يغذيها، الترعيب : قطع السنام ، يشن: يصب، تعلى به : تطلى به .

أَنَــاةٌ، عَلَيْهَا لُؤلُؤٌ وَزَبَرْجَــدٌ وَنَظْمٌ كَأَجْوَازِ الجَرادِ مُفَصَّلُ
يُرَبِّبُهَا التِّرعيبُ والمَحضُ خِلفَةً، وَمِسْكٌ وَكَافُورٌ وَلُبْنَى تُؤَكّلُ
يُشَنّ عَلَيْهَا الزّعْفَــرانُ كَــأَنّهُ دَمٌ قَــارِتٌ تُعلَى بِهِ ثمّ تُغسَلُ

فهي رقيقة لينة ،متمهلة في سيرها ،وقورة متوشحة بحليها وجواهرها المفصلة ،وهي منعمة تعيش على قطع الســنام واللــبن الخالص ،وتأكل اللبنى ذلك الشجر ذي اللبن المشابه للعسل حــلاوة ،ويصبُّ عليه المسك والزعفران ؛ فتبدو صــورتها ناطقــة بهــذه الرائحة العطرة .

ويرسم ذو الرمة صورة لمحبوبته اعتمد فيها على البصر والشــم في قوله : (١)

والقِرْطُ في حُرّةِ الذِّفرَى مُعَلَّقَةٌ تَبَاعَدَ الحبل فيه، فهــو يضْطَرِبُ
إذا أخــو لَذّةِ الدّنْيا تَبَــطّنَهَ وَالبَيْتُ فَوْقــهما باللّيلِ مُحْتَجَبُ
ســافَتْ بطيّبَةِ العِرْنِينِ مارِنُهَا بالمِسْكِ وَالعَنْبَرِ الهِنْدِيّ مُخْتَضَبُ
تِلْكَ الفتاةُ التي عُلّقْتُها عَرَضاً إنّ الكريمَ، وذا الإِســلامِ يُخْتَلَبُ

ويكمل ذو الرُّمة لوحة المرأة ؛ فيستعرض قرطها المتباعد على عنقها في حركته اللولبية التي يعكس من خلالها طول عنقهــا ،ونصاعته ،ويضيف إلى لوحتها جمال الرائحة فجعلهــا متعطــرةً ،ومخضبةً بالعنبر الهندي ذي الرائحة النفاذة .

---

(١) نفسه ص : (٧٤٩، ٧٥٠ / ١٩ :٢٢) .

ولم تقتصر الصورة المشمومة على لوحة المرأة ،بل شاركها صورة الخمر ،فهي كالمسك ريحها حين تُصَبُّ في القداح ،وذلك نجده في قول المرقش الأصغر : (١)

وَمَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ، كَالمِسْكِ رِيحُها،

تُعَلُّ على النّاجُودِ طَوراً وَتُنزَحُ

وقول الأخطل التغلبي : (٢)

كَأنّما المِسك نُهْبَى بَيْنَ أَرْحُلِنا

مِمّا تَضَوّعَ مِنْ ناجودها الجاري

---

(١) الجمهرة ص : (٤٣٨/ ٨) .

(٢) نفسه ص: (٧٢٧/ ٤٣).

خامسًا: الصورة الملموسة :

اللمس أحد الحواس التي ينعم بها الإنسان ،وأداة من الأدوات التي يتفاعل بها مع العالم المحيط به ،فبه يتحسس الإنسان ما حوله ؛ فينعم بالأسطح الملساء الناعمة ،ويرتاح لها ، وينزعج من الخشونة بما تحمله من فظاظة وغلظة تنغصُّ عليه حياته ،وتشعره بالضيق ؛ فينتابه شعور بعدم الرضا ،وفي المقابل يرتاح للنعومة والملاسة ،ويطرب لها ،وكذلك الشعراء فهم بما أوتوا من أحاسيس مرهفة ؛ فإنهم يكونون أكثر تفاعلاً مع مثل هذه الأمور ،ولهذا وجدنا لحاسة اللمس جانبًا لا يمكن إغفاله في صورهم حرصوا على أن يجملوا بها صورهم وخاصة صورة المرأة ،فامرؤ القيس يجعل أصابع محبوبته لينة رقيقة وذلك في قوله : (١)

وتَعطُو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنَّهُ أَساريعُ ظَبيٍ أو مَسَاويكُ إسْحِلِ

فأصابعها لينة ناعمة غير غليظة ،ويقرب لنا هذه النعومة من خلال التشبيه ؛فجعلها في نعومتها ،وكأنها دود صغير ،أو كهذا النوع من الأشجار التي تتخذ منها المساويك في نعومتها ولينها .

---

(١) الجمهرة ص : (٤٦/١٢٩) .

ولم تقتصر النعومة على لوحة المرأة ؛ بل تعدتها إلى صورة الفرس ؛ فجعل امرؤ القيس ظهره ناعمًا لينًا ،وذلك في قوله : (١)

كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حاذِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصّفْوَاءُ بِالمُتَنَزِّلِ

فهذا الفرس بجانب كونه كميتًا ــ وهو لون محبب للعرب ــ فإن متنه ناعم من شدة هذه النعومة يتزحلق لبده من عليه،ويقرب الصورة من خلال التشبيه بـ (كأن) التي تجعل طرفي التشبيه متشابهين إلى درجة الاندماج والتوحد ،وكأنهما شيء واحد ،فانزلاق اللبد من على ظهر الفرس يماثل انزلاق ما يتنزل على الصخرة الملساء ،وهذا يضفي على فرسه صفة الملاسة والنعومة .

وتتعدى الصورة اللمسية ما سبق إلى عدة الحرب ،ومثل ذلك نجده في قول مالك بن عجلان : (٢)

وَالبِيضُ يَغْشَى العُيُونَ لأَلأُهَا، مُلساً، وَفِينَا الرِّماحُ والجُحَفُ

---

(١) نفسه ص : (١٣٦ / ٦٣) كميت : خالط حمرته سواد ، تزلُّ اللبد : أي أنه أملس المتن سهله ، اللبد : ما يوضع تحت السرج ، حاذ متنه : وسط ظهره ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : المطر الذى ينزل من السماء .

(٢) نفسه ص : (١١/٥٠٤) ، البيض : جمع بيضة الحديد وهي ما يلبس على الرأس من حديد كالخوذة للوقاية في الحرب ، الحجف : التروس .

وقول الشماخ : (١)

فَلَمّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عَبْرَةً،

وَفي الصَّدْرِ حُزَّازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ

فَذَاقَ، فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِباً

كَفي وَلَهاً أن يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

فهي ملساء لينة لا خشونة فيها ،هكذا يتبين مدى تعدد محاور الصور المحسوسة ،فلم تقتصر على محور واحد ،بل بنيت على حواس مختلفة كالبصر والسمع ،والشم ، واللمس ، والطعم .

(١) الجمهرة ص : (٦٦٩ / ٣٤ ،٣٥) .